المجموعة التاريخية للصغار

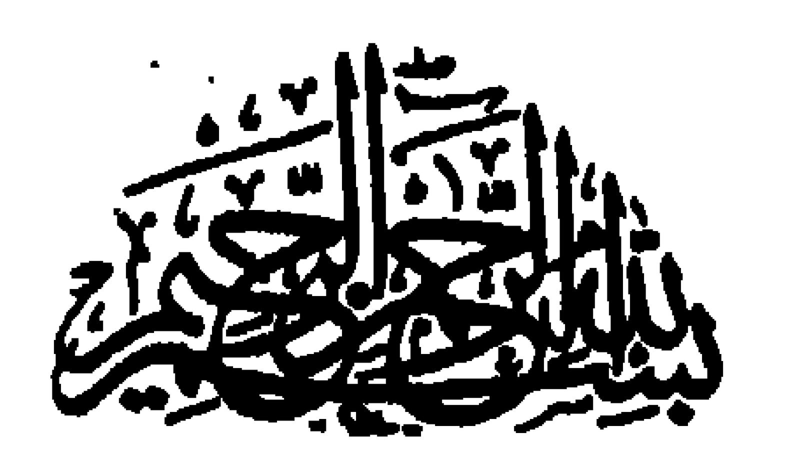
عجائب رحلة ابن بطوطة

ذاكرةُ القلْعةِ



إعداد
عبد القادر محمد مايو

مراجعة
أحمد عبد الله فرهود



منشورات

دار القلم العربي

الطبعة الأولى

مضبوطة ومشكولة

1423 هـ - 2003 م

عنوان الدار :

سورية - حلب - خلف الفندق السياحي ص.ب : 78

هاتف 2213129 3 / 2269599 فاكس : 2212361 21 963+

email : qalamrab@scs-net.org

ذَاكِـرَةُ القَلْعَـةِ

قَالَ الرَّحَّالَةُ أَبُو عَبْدِ الله ابْنُ بَطُّوطَةَ لِمَوْلَاهُ السُّلْطَانِ فَارِسِ بْنِ عَلِيٍّ ، أَبِي عِنَانٍ بِحُضُورِ كَاتِبِهِ مُحَمَّدِ بْنِ جُزِّيٍّ الكَلْبِيِّ :

ـ أَمَّا الآنَ يَا مَوْلَايَ فَقَدْ آنَ الأَوَانُ لأَنْ أَجْلُوكَ إِلَىٰ عَرُوسِ البُلْدَانِ ، وَعَاصِمَةِ بَنِي حَمْدَانَ ، أَلَا وَهِيَ مَدِينَةُ حَلَبَ ذَاتُ القَلْعَةِ الشَّهْبَاءِ ، وَذَاتُ البَهْجَةِ وَالصَّفَاءِ ، المُعْجِبَةُ لِكُلِّ مَنْ زَارَهَا ، وَحَلَّ دِيَارَهَا .

وَالحَقِيقَةُ يَامَوْلَايَ : لَمْ تَكُنْ حَلَبُ آخِرَ مَازُرْتُهُ فِي بُلَادِ الشَّامِ ، وَأَنَا فِي طَرِيقِي إِلَىٰ الحَجِّ ، وَزِيَارَةِ قَبْرِ خَيْرِ الأَنَامِ ، النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَإِنَّمَاانْتَهَيْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ تَجْوَالٍ ، وَحِلٍّ وَتَرْحَالٍ ، فَقَدْ زُرْتُ فِي جَنُوبِهَا مِنْ مُدُنِ فِلِسْطِينَ عَسْقَلَانَ وَالرَّمْلَةَ وَنَابُلُسَ ، وَمِنْ مَوَانِئِ بَحْرِ الرُّومِ عَكَّةَ وَصُورَ وَبَيْرُوتَ وَطَرَابُلُسَ الشَّامِ واللاذِقِيَّةَ ، وَانْتَهَيْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ المَعَرَّةِ وَسَرْمِينَ ، بَعْدَ المُرُورِ بِحِمْصَ وَحَمَاةَ بِتَوْفِيقٍ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ ذِي العِزَّةِ المَكِينِ .

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي مَدِينَةِ حَلَبَ الكَثِيرِ الكَثِيرِ مِمَّا يُثِيرُ الدَّهْشَةَ وَالعَجَبَ ، لَمَا لَنَا بِالتَّعْرِيجِ بِهَا مِنْ غَايَةٍ وَلاَ مُكْتَسَبٍ .

وَحَسْبُ هَذِهِ المَدِينَةِ الجَمِيلَةِ مَا وَصَفَهَا بِهِ سَابِقِي الرَّحَّالَةُ أَبُو الحُسَيْنِ ابْنُ جُبَيْرٍ عِنْدَمَا قَالَ فِيهَا : (قَدْرُهَا خَطِيرٌ ، وَذِكْرُهَا فِي كُلِّ زَمَانٍ يَطِيرُ ، خُطَّابُهَا مِنَ المُلُوكِ كَثِيرٌ ، وَمَحَلُّهَا مِنَ النُّفُوسِ أَثِيرٌ . فَكَمْ هَاجَتْ مِنْ كِفَاحٍ ، وَسُلَّ عَلَيْهَا مِنْ بِيضِ الصِّفَاحِ . لَهَا قَلْعَةٌ شَهِيرَةُ الامْتِنَاعِ ، بَالِغَةُ الارْتِفَاعِ ، طَاوَلَتِ الأَيَّامَ وَالأَعْوَامَ ، وَوَسِعَتِ الخَوَاصَّ وَالعَوَامَّ . .) .

وَصَلْتُ إِلَىٰ حَلَبَ ، وَكَانَ عَلَيْهَا أَمِيرُ الأُمَرَاءِ الكِبَارِ وَاسْمُهُ أَرْغُونُ الدَّوَادَارُ ، وَهُوَ فَقِيهٌ حَصِيفٌ ، مَوْصُوفٌ بِالعَدْلِ وَلاَّهُ المَلِكُ النَّاصِرُ إِمَارَتَهَا ، فَأَخْلَصَ فِي تَدْبِيرِ أُمُورِهَا مَا اسْتَطَاعَ ، إِلاَّ أَنَّهُ بَخِيلٌ مَنَّاعٌ .

وَيُقَالُ عَنْ مَدِينَةِ حَلَبَ : إِنَّهَا كَانَتْ مَدِينَةَ الخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلاَمُ وَإِنَّمَا سُمِّيَتْ حَلَبَ عَلَىٰ عَهْدِهِ ، لأَنَّهُ كَانَ يَسْكُنُهَا ، وَكَانَتْ لَهُ فِي مَرَاعِيهَا أَغْنَامٌ كَثِيرَةٌ يَحْلِبُهَا وَيَسْقِي الفُقَرَاءَ وَالمَسَاكِينَ فَإِذَا اجْتَمَعُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ تَسَاءَلُوا : هَلْ حَلَبَ إِبْرَاهِيمُ ؟ .

فَسُمِّيَتْ مَدِينَةَ الحَلْبِ بِحَلَبَ ، بِنَاءً عَلَىٰ تَرْدَادِ هَذِهِ الكَلِمَةِ ، وَتَكْرَارِهَا عَلَىٰ أَلْسِنَةِ الفُقَرَاءِ .

أَمَّا أُعْجُوبَةُ الأَعَاجِيبِ ، وَالشَّكْلُ المُهِيبُ فَهُوَ لِقَلْعَتِهَا التِي تُسَمَّىٰ الشَّهْبَاءَ ، وَهِي مُبْتَنَاةٌ مِنْ قَدِيمِ الأَزْمَانِ ، إِلَىٰ أَنْ سَكَنَهَا وَاعْتَصَمَ بِهَا سَيْفُ الدَّوْلَةِ بْنُ حَمْدَانَ ، وَكَانَتْ مَصَدّاً لِغَزَوَاتِ الرُّومِ وَحَمَلاَتِهِمْ ، فَرَجَعُوا مِنْهَا خَائِبِينَ غَيْرَ مَرَّةٍ .

يَقُومُ بِنَاءُ القَلْعَةِ الحَصِينُ عَلَىٰ جَبَلٍ مُرْتَفِعٍ ، وَبِدَاخِلِهَا جَبَلاَنِ أَصْغَرُ مِنْهُ ، يَنْبُعُ مِنْهُمَا المَاءُ ، فَلاَ تَخَافُ الظَمَأَ ، وَيُحِيطُ بِهَا سُورَانِ ، وَعَلَيْهَا خَنْدَقٌ عَظِيمٌ يَزِيدُ عُمْقُهُ عَنْ عِشْرِينَ ذِرَاعاً ، يُضَخُّ فِيهِ المَاءُ ، أَوْ يَمْتَلِىءُ بِإِمْرَةِ آمِرٍ عِنْدَ كُلِّ حِصَارٍ تَتَعَرَّضُ لَهُ المَدِينَةُ وَقَلْعَتُهَا . وَعَلَىٰ دَائِرَةِ السُّورِ أَبْرَاجٌ عَالِيَةٌ مُنْتَظِمَةٌ ، فِيهَا فَتَحَاتٌ وَطَاقَاتٌ لِلرَّمْيِ . وَيُقَالُ : إِنَّ الطَّعَامَ لاَ يَتَغَيَّرُ بِهَذِهِ القَلْعَةِ ، مَهْمَا طَالَ عَهْدُهُ بِبَرَكَةِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ ، حَيْثُ مَشْهَدُهُ وَمَعْبَدُهُ فِي دَاخِلِهَا .

عِنْدَمَا وَصَلَ ابْنُ بَطُّوطَةَ إِلَىٰ هَذَا الحَدِّ مِنَ القَوْلِ ، وَالإِشَادَةِ بِحَلَبَ وَبِقَلْعَتِهَا ، لَمْ يَمْلِكِ ابْنُ جُزِّيٍّ نَفْسَهُ مِنَ الفُضُولِ وَالتَّدَخُّلِ ، فَوَضَعَ رِيشَةَ الكِتَابَةِ جَانِباً وَقَالَ :

ـ الذِي أَعْلَمُهُ أَنَّ عَدِيداً مِنَ الشُّعَرَاءِ الذِينَ عَاشُوا فِي حَلَبَ قَدْ أَطْنَبُوا فِي وَصْفِ مَحَاسِنِهَا وَبِذِكْرِ دَاخِلِهَا وَخَارِجِهَا ، وَيَحْضُرُنِي الآنَ ذِكْرُ بَعْضِ أَقْوَالِهِمْ فِيهَا فَهَلْ يَأْذَنُ لِي مَوْلاَيَ السُّلْطَانُ ؟ !

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ قُلْ مَا عِنْدَكَ يَا ابْنَ جُزِّيٍّ وَاخْتَصِرْ ، وَلاَتَطْغَ بِحَدِيثِكَ عَلَىٰ حَدِيثِ ابْنِ بَطُّوطَةَ الشَّائِقِ الرَّائِقِ :

قَالَ الكَاتِبُ ابْنُ جُزِّيٍّ :

ـ سَمْعاً وَطَاعةً يَامَوْلاَيَ . .

وَراحَ يَرْوِي مَا عِنْدَهُ ، قَالَ : قَالَ أَبُو عُبَادَةَ البُحْتُرِيُّ فِي إِينَاسِ حَلَبَ وَاسْتِئْنَاسِهِ بِهَا :

أَرْضٌ إِذَا مَا اسْتَوْحَشَتْ بِتَذَكُّرٍ حَشَدَتْ عَلَيَّ فَأَكْثَرَتْ إِينَاسِي

وَقَالَ شَاعِرُهَا المُجِيدُ أَبُو بَكْرٍ الصَّنَوْبَرِيُّ :

سَقَىٰ حَلَبُ المُزْنِ مَغْنَىٰ حَلَبْ فَكَمْ وَصَلَتْ طَرَباً بِالطَّرَبْ

وَقَالَ فِيهَا أَبُو العَلاَءِ المَعَرِّي :

حَلَبٌ لِلْوُرَّادِ جَنَّةُ عَدْنٍ وَهِيَ لِلْغَادِرِينَ نَارُ سَعِيرِ

وَقَالَ غَيْرُهُ :

يَا صَاحِبَيَّ إِذَا أَعْيَاكُمَا سَقَمِي   فَلَقِّيَانِي نَسِيمَ الرِّيحِ مِنْ حَلَبِ

وَقَالَ فِيهَا أَبُو الفَتْحِ المَدْعُوُّ كُشَاجِمْ :

وَمَـا أَمْتَعَـتْ جَـارَهَـا بَلْـدَةٌ   كَمَـا أَمْتَعَـتْ حَلَـبٌ جَـارَهَـا

بِهَـا قَـدْ تَجَمَّـعَ مَـا تَشْتَهِـي   فَزُرْهَـا ، فَطُـوبَىٰ لِمَنْ زَارَهَـا

وَقَالَ فِيهَا غَيْرُهُ :

حَلَـبٌ إِنَّهَـا مَقَـرُّ غَـرَامِـي   وَمَـرَامِـي وَقِبْلَـةُ الأَشْـوَاقِ

وَعُلُـوُّ الشَّهْبَـاءِ حَيْـثُ اسْتَدَارَتْ   أَنْجُـمُ الأُفْـقِ حَـوْلَهَـا كَـالنِّطَـاقِ

هُنَا دَبَّ الحَمَاسُ فِي صَدْرِ السُّلْطَان أَبِي عنَان ، وَقَالَ مُخَاطِباً جَلِيسَيْهِ ابْنَ بَطُّوطَةَ وَابْنَ جُزَّيٍّ :

ـ وَأَيْنَ أَنْتُمَا مِمَّا قَالَهُ فِيهَا وَفِي أَمِيرِهَا سَيْفِ الدَّوْلَةِ القَائِدِ المُقَاتِلِ البَاسِلِ رَحِمَهُ الله أَعْنِي بِهِ الشَّاعِرَ الأَكْبَرَ أَبَا الطَّيِّبِ المَتَنَبِّي عِنْدَمَا قَالَ :

كُلَّمَـا رَحَّبَـتْ بِنَـا الـرَّوْضُ قُلْنَـا   حَلَـبٌ قَصْـدُنَـا وَأَنْـتِ السَّبِيـلُ

فِيكِ مَرْعَىٰ جِيَادِنَا وَالمَطَايَا وَإِلَيْهَا وَجِيفُنَا وَالذَّمِيلُ

وَهُوَ يَعْنِي بِالوَجِيفِ وَالذَمِيلِ ضُرُوباً مِنَ السَّيْرِ ، جَادَّةَ المَقْصِدِ وَغَيْرَ هَازِلَةٍ فِي سَعْيِهَا نَحْوَ حَلَبَ . .

قَالَ الكَاتِبُ ابْنُ جُزِّيٍّ :

وَكَأَنِّي بِالشَّاعِرِ الفَذِّ أَبِي الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي ، قَدْ قَصَدَكَ فِي القَصِيدَةِ عَيْنِهَا بِقَوْلِهِ :

لَيْسَ إِلَّاكَ يَا عَلِيُّ هُمَامٌ سَيْفُهُ دُونَ عِرْضِهِ مَسْلُولُ

وَهُوَ لَمْ يَعْدُ الحَقِيقَةَ فِي التَّسْمِيَةِ ، فَذَاكَ المَمْدُوحُ المُسْتَحِقُّ عَلَيٌّ ، وَأَنْتَ المَمْدُوحُ المُسْتَحِقُّ فَارِسُ بْنُ عَلِيٍّ طَالَ عُمُرُكَ وَأَيَّدَكَ اللهُ بِالنَّصْرِ ، وَزَيَّنَكَ بِتَاجِ العِزِّ وَالرِّفْعَةِ قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ لِكَاتِبِهِ ابْنِ جُزِّيٍّ وَهُوَ كَالمُحْرَجِ :

ـ كَفَىٰ . . كَفَىٰ يَا مُحَمَّدُ يَا بْنَ جُزِّيٍّ ، دَعْ صَاحِبَكَ ابْنَ بَطُّوطَةَ يُوَافِينَا بِمَا عِنْدَهُ مِنْ سِيرَةِ حَلَبَ وَقَلْعَتِهَا وَرِجَالِهَا الأَفْذَاذِ .

قَالَ الكَاتِبُ ابْنُ جُزِّيٍّ تَمَثُّلاً لأَمْرِ السُّلْطَانِ أَبِي عِنَانٍ :

ـ سَمْعاً وَطَاعةً يَا مَوْلاَيَ . .

تَقَدَّمَ ابْنُ بَطُّوطَةَ فِي مَقْعَدِهِ مِقْدَارَ خُطْوَةٍ وَتَنَحْنَحَ اسْتِعْدَاداً لاسْتِئْنَافِ الحَدِيثِ وَهُوَ يَقُولُ :

ـ تِلْكَ هِيَ حَلَبُ يَا مَوْلاَيَ ، وَهِيَ مِنْ أَعَزِّ البِلاَدِ التِي لاَ نَظِيرَ لَهَا فِي حُسْنِ المَوْضِعِ ، وَإِتْقَانِ التَّرْتِيبِ ، وَاتِّسَاعِ الأَسْوَاقِ ، وَمُعْظَمُ أَسْوَاقِهَا مَسْقُوفَةٌ بِالخَشَبِ ، وَمَسْجِدُهَا الجَامِعُ مِنْ أَجْمَلِ المَسَاجِدِ ، فِي صَحْنِهِ بِرْكَةُ مَاءٍ ، وَيُحِيطُ بِهِ رُوَاقٌ عَظِيمُ الاتِّسَاعِ ، وَمِنْبَرُهَا بَدِيعُ العَمَلِ مُرَصَّعٌ بِالعَاجِ وَالأَبْنُوسِ ، وَبِقُرْبِ جَامِعِهَا مَدْرَسَةٌ مُنَاسِبَةٌ لَهُ فِي حُسْنِ الوَضْعِ وَإِتْقَانِ الصَّنْعَةِ ، وَبِهَا مَا رِسْتَانٌ يُدَاوَىٰ فِيهِ المَرْضَىٰ . وَخَارِجَهَا مَزَارِعُ وَبَسَاتِينُ عَلَىٰ شَاطِىءِ نَهْرِهَا . وَالنَّفْسُ تَجِدُ فِي مُتَنَزَّهَاتِهَا انْشِرَاحاً وسُرُوراً وَنَشَاطاً لاَ يَكُونُ فِي سِوَاهَا . وَهِيَ مِنَ المُدُنِ التِي تَصْلُحُ لِلخِلاَفَةِ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ لِرَاوِيَتِهِ وَمُحَدِّثِهِ الرَّحَّالَةِ ابْنِ بَطُّوطَةَ :

ـ حَدِّثْنِي عَنْ قَلْعَةِ حَلَبَ حَدِيثاً مُسْتَفِيضاً فَوْقَ مَا حَدَّثْتَنِي بِهِ ، فَلَقَدْ

عَمَّتْ شُهْرَتُهَا الآفَاقَ وَالبُلْدَانَ ، وَأَخْبِرْنِي هَلْ حَظِيتَ بِزِيَارَتِهَا فِي دَاخِلِهَا مِنْ جُمْلَةِ مَا زُرْتَهُ مِنَ المَعَالِمِ وَآيَاتِ العُمْرَانِ البَشَرِيِّ ؟

ـ لاَ أُخْفِي عَلَيْكَ يَا مَوْلاَيَ أَنَّنِي تَوَسَّطْتُ لَدَىٰ قَاضِيهَا كَمَالِ الدِّينِ الشَّافِعِيِّ المَذْهَبِ فَوَجَدَ لِي طَرِيقاً إِلَىٰ زِيَارَتِهَا بِاصْطِحَابِهِ ذَاتَ مَرَّةٍ لِلِقَاءِ الأَمِيرِ الدَّوَادَارِ أَرَغُونَ . وَلَكِنَّنِي يَا مَوْلاَيَ لَمْ أَعْدُ المَجْلِسَ الذِي كَانَ فِيهِ الأَمِيرُ ، وَلَمْ أَتَجَوَّلْ فِي أَنْحَائِهَا . وَقَدْ حَصَلَ لِي أَثْنَاءَ إِقَامَتِي فِي حَلَبَ مَا هُوَ أَعْجَبُ مِنَ العَجَبِ . .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ :

ـ هَاتِ حَدِّثْنِي بِمَا زَعَمْتَ أَنَّهُ مِنْ أَعْجَبِ العَجَبِ . فَلَيْسَ شَيءٌ يُغْنِي عَنِ الطَّرَائِفِ وَاللطَائِفِ فِي أَسْمَارِ اللَيَالِي . .

قَالَ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

ـ هَذَا حَقٌّ يَا مَوْلاَيَ ، وَمَا حَصَلَ لِي مِنَ الأَعَاجِيبِ كَانَ أَعْجَبُهُ لِقَائِي بِمَنْ سَمَّىٰ نَفْسَهُ ذَاكِرَةَ القَلْعَةِ .

قَالَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ وَ قَدْ شَغَلَهُ الاهْتِمَامُ :

ـ وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ ؟

قَالَ الرَّحَّالَةُ ابْنُ بَطُّوطَةَ :

خَرَجْتُ ذَاتَ لَيْلَةٍ أَقْصِدُ قَلْعَةَ حَلَبَ لأَطُوفَ حَوْلَ خَنْدَقِهَا الوَاسِعِ العَجِيبِ ، وَأَسْتَشْرِفَ مِئْذَنَةَ جَامِعِهَا الكَبِيرِ فِي أَعْلاَهَا ، وَلَمَّا كُنْتُ بِبَابِهَا شَعَرْتُ بِخُطُوَاتِ مَنْ يُلاَحِقُنِي كَظِلِّي ، وَكَانَ ظَنِّي أَنَّهُ أَحَدُ العَسَسِ أَوْ الحَرَسِ اللَّيْلِيِّينَ حَوْلَ القَلْعَةِ ، وَمَا لَبِثَ هَذَا الشَّبَحُ أَنْ اسْتَوْقَفَنِي وَنَادَانِي .

ـ أَيُّهَا الغَرِيبُ ! . . أَيُّهَا الغَرِيبُ ! . .

تَوَقَّفتُ حَيْثُ كُنْتُ مِنْ دَائِرَةِ الخَنْدَقِ ، وَقُلْتُ لِلمُنَادِي :

ـ مَاذَا تُرِيدُ ؟ قَالَ المُنَادِي :

ـ أَلَسْتَ بِرَحَّالَةٍ غَرِيبٍ عَنْ هَذِهِ المَدِينَةِ ؟

قُلْتُ : بَلَىٰ ! وَكَيْفَ عَرَفْتَ ؟ قَالَ :

ـ عَرَفْتُ مِنْ خُرُوجِكَ فِي اللَّيْلِ وَمِنْ نَظَرَاتِكَ الفُضُولِيَّةِ المُسْتَطْلِعَةِ لِمَعَالِمِ القَلْعَةِ . .

تَحْتَ ضَوْءِ القَمَرِ فِي أَوَائِلِ لَيَالِيهِ ، وَكَانَ الضَّوْءُ شَحِيحاً تَأَمَّلْتُ فِي وَجْهِ مُكَلِّمِي ، فَبَدَا شَابّاً حَسَنَ الخِلْقَةِ وَهُوَ شِبْهُ أَمْرَدَ لَمَّا يَنْبُتْ شَعْرُ لِحْيَتِهِ وَشَارِبَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ حَسَنُ الهِنْدَامِ كَالأُمَرَاءِ .

قُلْتُ : مَنْ أَنْتَ أَيُّهَا الشَّابُّ ؟ وَلِمَاذَا اسْتَوْقَفْتَنِي ؟ قَالَ : لَنْ أُجِيبَكَ قَبْلَ أَنْ تُخْبِرَنِي : مَنْ أَنْتَ وَمَا حِكَايَةُ خُرُوجِكَ فِي هَذَا اللَّيْلِ . .

قُلْتُ : أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ . شَمْسُ الدِّينِ ، بْنُ بَطُّوطَةَ ، أَصْلِي مِنْ طَنْجَةَ فِي بِلَادِ المَغْرِبِ خَرَجْتُ بِقَصْدِ الحَجِّ ، وَقَادَنِي قَدَرِي إِلَىٰ بِلَادِ الشَّامِ فِي حِكَايَةٍ . طَوِيلَةٍ . . فَهَلْ تُخْبِرُنِي مَنْ أَنْتَ ؟

قَالَ الرَّجُلُ الشَّابُّ : قَدْ يُدْهِشُكَ تَعَدُّدُ أَسْمَائِي وَلاَ أَوَدُّكَ أَنْ تَعْرِفَنِي بِأَكْثَرَ مِنْ تَسْمِيَتِي لِنَفْسِي بِذَاكِرَةِ القَلْعَةِ ، أُحَدِّثُكَ مِنْ أَخْبَارِهَا بِمَا تَشَاءُ . .

قُلْتُ لِمُحَدِّثِي الشَّابِّ : وَلَكِنْ يَبْدُو لِي أَنَّكَ فِي زَهْوَةِ الشَّبَابِ فَكَمْ عُمُرُكَ ؟ قَالَ عُمْرِي الدَّهْرُ كُلُّهُ ، وَلَكِنَّ شَبَابِي قَدْ تَجَدَّدَ فَأَنَا اليَوْمَ فِي السَّابِعَةِ والثَّلاثِينَ مُذْ تَمَّتْ عِمَارَتِي فِي أَيَّامِ المَلِكِ الأَشْرَفِ .

وَكَانَ خَرَابِي عَلَىٰ أَيْدِي المَغُولِ حِينَ اسْتَوْلَوْا عَلَىٰ المَدِينَةِ سَنَةَ ثَمَانٍ

وَخَمْسِينَ وَسِتِّمِائَةٍ ، وَكَانَ عَلَىٰ رَأْسِهِمْ المُتَسَلِّطُ البَطَّاشُ هُولاَكُو . .

قُلْتُ لِذَاكِرَةِ القَلْعَةِ مُبْتَهِجاً وَمُنْتَشِياً بِهَذِهِ الفُرْصَةِ العَجِيبَةِ :

ـ يَا مَنْ دَعَوْتَ نَفْسَكَ بِذَاكِرَةِ القَلْعَةِ ، هَلْ لَكَ أَنْ تُحَدِّثَنِي عَنْ أَعْظَمِ مَنْ مَرَّ بِكَ مِنَ المُلُوكِ وَالسَّلاطِينِ الفَاتِحِينَ ، مِمَّنْ تَرَكُوا فِي عُمُرِكَ المَدِيدِ أَثَراً لاَ يُمْحَىٰ وَلاَ يُنَسَىٰ ؟

قَالَ الشَّابُّ : إِنَّهُ ـ وَلاَ شَكَّ ـ مِنْ بَعْدِ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الحَمَدَانِيِّ ، صَلاَحُ الدِّينِ يُوسُفُ بْنُ أَيُّوبَ ، فَأَوَّلُهُمَا قَاهِرُ الرُّومِ وَرَادِعُهَا عَنْ بِلاَدِ الإِسْلاَمِ ، وَثَانِيهِمَا هَازِمِ جَحَافِلِ الفِرَنْجَةِ وَمُسْتَرْجِعُ بَيْتِ المَقْدِسِ

قُلْتُ : هَاتِ حَدِّثْنِي بِمَا تَيَسَّرَ لَكَ عَنِ البَطَلِ صَلاحِ الدِّينِ الأَيُّوبِيِّ . .

قَالَ الشَّابُّ : سَيَطُولُ بِنَا الحَدِيثُ فَدَعْنَا نَقْتَعِدْ هَذَا الحَجَرَ العَرِيضَ أَمَامَ الخَنْدَقِ . .

وَجَلَسْنَا نَتَحَدَّثُ ، وَكَانَ مِمَّا حَدَّثَنِي بِهِ الشَّابُّ تَحْتَ إِشْرَافِ مِئْذَنَةِ القَلْعَةِ وَأَبْرَاجِهَا ، وَقَمْرِ السَّمَاءِ وَنُجُومِهَا .

قَالَ المُتَحَدِّثُ بِلِسَانِ القَلْعَةِ :

ـ دَخَلَ صَلاحُ الدِّينِ بَيْنَ أَسْوارِي فِي شَهْرِ صَفَرَ مِن عَامِ تِسْعَةٍ وَسَبْعِينَ وَتِسْعِمائَةٍ ، مُجْلِياً عَنْهَا بِالتَّفَاهُمِ عِمَادَ الدِّينِ زَنْكِي ، وَقَدْ تَشَرَّفَ بِصَلاحِ الدِّينِ مِقْدَارِي ، وَكَمْ سَمِعَهُ سَامِعٌ وَهُوَ صَاعِدٌ أَدْرَاجِي يَتْلُو قَوْلَهُ تَعَالَىٰ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ ﴾ وَقَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ : وَاللهِ مَا سُرِرْتُ بِفَتْحِ مَدِينَةٍ كَسُرُورِي بِفَتْحِ هَذِهِ المَدِينَةِ ثُمَّ صَارَ إِلَىٰ المَقَامِ فَصَلَّىٰ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ سَجَدَ فَأَطَالَ السُّجُودَ ، ثُمَّ خَرَجَ وَتَجَوَّلَ فِي رِحَابِي ، وَجَلَسَ يَتَلَقَّىٰ التَّهَانِي بِفَتْحِ حَلَبَ ، وَدَخَلَ عَلَيْهِ الوُجَهَاءُ وَالأَعْيَانُ وَالشُّعَرَاءُ . وَأَنْشَدَهُ القَاضِي مُحْيِي الدِّينِ فِي حَضْرَتِي قَصِيدَةَ البُشْرَىٰ العَجِيبَةِ مُتَنَبِّئاً بِأَنْ يَتُمَّ لَهُ فَتْحُ القُدْسِ فِي شَهْرِ رَجَبٍ مِنْ عَامٍ قَادِمٍ ، قَالَ :

وَفَتْحُكَ القَلْعَةَ الشَّهْبَاءَ فِي صَفَرٍ مُبَشِّرٌ بِفُتُوحِ القُدْسِ فِي رَجَبِ

لَمْ يَطُلِ الأَمَدُ عَلَىٰ هَذِهِ البُشْرَىٰ العَجِيبَةِ أَكْثَرَ مِنْ سَنَوَاتٍ أَرْبَعٍ ، وَكَانَتْ هَزِيمَةُ حُشُودِ الفِرَنْجَةِ فِي حِطِّينَ ، وَتَمَّ فَتْحُ القُدْسِ الشَّرِيفِ عَامَ ثَلاثَةٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِمِئَةٍ ، وَعَادَتْ إِلَىٰ المُسْلِمِينَ قِبْلَتُهُم الأُولَىٰ بَعْدَ أَنْ سُلِبَتْ مِنْهُمْ مُدَّةَ إِحْدَىٰ وَتِسْعِينَ سَنَةً . وَصَلَّىٰ صَلاحُ الدِّينِ فِي قُبَّةِ

الصَّخْرَةِ ، وَحَمَلَ أَهْلِي فِي حَلَبَ إِلَىٰ المَسْجِدِ الأَقْصَىٰ هَدِيَّتَهُمْ النَّفِيسَةِ مِنْبَراً فَخْماً اسْتَغْرَقَ صُنْعُهُ عِشْرِينَ سَنَةً بِوَصِيَّةٍ مِنَ الأَمِيرِ الصَّالِحِ نُورِ الدِّينِ .

شَاقَتْنِي رُؤْيَةُ صَلاحِ الدِّينِ البَطَلِ التَّقِيِّ الوَرِعِ المُجَاهِدِ ، وَوَدِدْتُ لَوْ صَلَّيْتُ عَلَىٰ أَذْيَالِهِ مَحَبَّةً وَإِعْجَاباً بِإِرَادَتِهِ وَتَصْمِيمِهِ عَلَىٰ رَفْعِ رَايَةِ الأُمَّةِ وَجِبَاهِهَا بِتَحْقِيقِ النَّصْرِ المُبِينِ .

كُنْتُ أَسْتَطْلِعُهُ فِي وَجْهِ المَلِكِ الظَّاهِرِ غَازِي وَفِيمَا خَلَّفَهُ مِنْ آثَارٍ وَصَنَائِعَ مِنْهَا المَدْرَسَةُ الظَّاهِرِيَّةُ وَمِنْهَا مَسْجِدِي الكَبِيرُ بِالقُرْبِ مِنَ المَنَارَةِ .

كَانَ صَلاحُ الدِّين ثَابِتَ العَقِيدَةِ عَادِلاً رَؤُوفاً رَحِيماً نَاصِراً لِلضُّعَفَاءِ ، كَثِيرَ العَطَاءِ ، وَهُوَ مِنْ عُظَمَاءِ الشُّجْعَانِ المُوَاظِبِينَ عَلَىٰ الجِهَادِ فِي سَبِيلِ الله ، وَلَنْ يَتَّسِعْ مَجْلِسُنَا لِتَعْدَادِ شِيَمِهِ النَّبِيلَةِ وَلاَ لِتَعْدَادِ بَعْضِهَا . .

وَلَقَدْ وَعَيْتُ فِي ذَاكِرَتِي مَا لاَ أَنْسَاهُ مِنْ وَصِيَّتِهِ لِوَلَدِهِ المَلِكِ الظَّاهِرِ غَازِي ، عِنْدَ عَوْدَتِهِ إِلَىٰ حَلَبَ بَعْدَ عَقْدِ الهُدْنَةِ مَعَ الفِرَنْجَةِ ، وَأَهَمُّ مَا

فِيهَا تَقْوَىٰ الله وَرِعَايَةُ حُقُوقِ النَّاسِ .

وَكَانَ ابْتِدَاءُ مَرَضِهِ ، وَهُو مُقِيمٌ فِي دِمَشْقَ ، إِلَىٰ أَنْ تُوُفِّيَ فِيهَا بِعْدَ صَلاَةِ الصُّبْحِ مِنْ يَوْمِ الأَرْبِعَاءِ السَّابعِ وَالعِشْرِينَ مِنْ صَفر سَنَةَ تِسْعٍ وَثَمَانِينَ وَخَمْسِمِائَةٍ ، وَقَدْ تَهَلَّلَ وَجْهُهُ لِلِقَاءِ رَبِّهِ . . رَحِمَهُ الله . .

فَجْأَةً نَشَجَ مُحَدِّثِي بِالبُكَاءِ وَهُوَ يُرَدِّدُ : رَحِمَهُ الله . . رَحِمَهُ الله . . . وَقَالَ : (كَمْ كُنْتُ أَوَدُّ أَنْ تُوَارِيَهِ تُرْبَتِي ، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قَوَّةَ إِلاَّ بِالله العَلِيِّ العَظِيم) .

قَامَ الشَّابُّ المُتَسَمِّي بِذَاكِرَةِ القَلْعَةِ مِنْ جَانِبِي ، وَخَلَّفَنِي وَحِيداً مُتَأَلِّماً ، أَتَقَلَّبُ فِي فِرَاشِي وَبِوُدِّي أَنْ أَجْرِي خَلْفَ ذَاكِرَةِ القَلْعَةِ الحَلَبِيَّةِ عَسَىٰ أَنْ يُحَدِّثَنِي لِسَانُهَا بِالمَزِيدِ . .

هُنَا ، خَتَمَ ابْنُ بَطُّوطَةَ حَدِيثَهُ بِدَمْعَتَيْنِ حَارَّتَيْنِ ، وَفَتَحَ كَفَّيْهِ لِقِرَاءَةِ الفَاتِحَةِ عَلَىٰ رُوحِ صَلاحِ الدِّينِ ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ السُّلْطَانُ أَبُو عِنَانٍ وَكَاتِبُهُ ابْنُ جُزَّيٍّ . .

☆☆ ☆☆ ☆☆